حركة الترجمة

لم يترجم العرب سوى 11000 كتاب تقريبا منذ العصر العباسي(أكثر من ألف سنة) وحتى وقتنا الحاضر، وهذا فى الشرق الإسلامى؛ أما عن الأندلس والمغرب، فإن إحدى العلامات الفارقة الأساسية التي ميّزت التطور الفكري للجناح الغربي من الحضارة العربية الإسلامية عن جناحها الشرقي الانعدام التام فيه لحركة الترجمة إلى العربية، ولكنه شهد بالمقابل حركة ترجمة معاكسة من العربية إلى العبرية، ومنها إلى اللاتينية، مما أسهم في إيقاظ الغرب الأوروبي من سباته فى القرون الوسطى..

زيد بن ثابت الأنصارى الخزرجى هو أول من ترجم فى الإسلام، كتب إلى الملوك، وترجم للنبى صلى الله عليه وسلم بالفارسية، والرومية، والقبطية، والحبشية، وتقول الروايات إنه تعلَّمها بالمدينة من أهل هذه الألسن(التجار في الغالب)، وإشكالية هذه الروايات تأتى من أن زيدا ما كان ليأخذ عنهم لغاتهم إلا شفاهاً، ولم يدرك الرواة، ولا تحقق الناقلون من كيفية إتقان زيد الكتابة الأبجدية لتلك اللغات المتباينة عظيم التباين في خطوطها كى يستطيع قراءتها للنبى الكريم، فنحن نعلم كم من الأميين يتكلمون بلغة، أو بلغات أجنبية، ولا يستطيع قراءتها لأنه لا يستطيع أن يقرأ لغته، فقد كان من أهل مكة، والمدينة ما هو كثير السفر من أجل التجارة وغيرها، ويعود التفاهم، وتبادل الأفكار مع الأحباش، والرومان، والفرس، والقبط دون أن يضطر لقراءة، أو كتابة هذه اللغات.

ثم بدت الحاجة إلى الترجمة فى حركة نقل الدواوين، وتعريبها فى دولة بنى أمية أثناء خلافة عبد الملك بن مروان؛ فبادر الحجاج بن يوسف الثقفى إلى ذلك فى الدواوين المكتوبة بالفارسية، ثم عمد هشام بن عبد الملك إلى ذلك بالنسبة للدواوين المكتوبة بالرومية..

واهتم بالترجمة من خلفاء بنى أمية «هشام بن عبد الملك» الذى نقل له كاتبه «سالم أبو العلاء» رسائل أرسطوطاليس إلى الإسكندر ليطلع على ما فيها من علم السياسة، وفن تدبير المُلك - كما

ذكر ابن النديم – أما المسعودى فيجزم أن كتاب «سياسات الفرس» الذى اشتمل على أخبار، وسياسات، وأبنية ملوك الفرس قد ترجم لهذا الخليفة المعنى بشئون السياسة، والحكم..

وخلال فترة التكوين لم يكن هناك علم، أو فلسفة إلا بعض الترجمات لعلوم الكيمياء القديمة، والفلك، والطب التى أمر بترجمتها الأمير «خالد بن يزيد» فى العصر الأموى بعد أن فشلت مطالبته بالخلافة، وقد كانت فترة فتوحات، وتوسع، ونمو تجارى حققت انتعاشا اقتصاديا أفرز طبقة ثرية لم تنشغل باكتساب لقمة العيش، فاتجهت بهذا الفراغ نحو الثقافة، واكتساب العلوم، والفنون المختلفة، ورعايتها.

يذكر ابن النديم فى «فهرسه» علاقة أول أمراء الإسلام «خالد بن يزيد بن معاوية» المعروف «بحكيم آل مروان» بالترجمة، ونقل الكتب فيقول عنه:

- «فاضلا فى نفسه، وله همة، ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى، والقبطى إلى العربية، وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة»..

ويقول عنه ابن خلكان فى كتابه «وفيات الأعيان»:

- «كان من أعلم قريش بفنون العلم، وله كلام فى صنعة الكيمياء، والطب، وكان بصيرا بهذين العلمين، متقنا لهما»..

وقال عنه حاجى خليفة صاحب كتاب «كشف الظنون»:

- «أول من تكلم فى علم الكيمياء، ووضع فيها الكتب، وبين صفة الإكسير، والميزان»..

وبالرغم مما ذكره أصحاب التراجم المذكورون؛ إلا أن ابن خلدون(بينه وبين خالد حوالى سبعة قرون) يشك فى اشتغاله بالكيمياء فيقول:

- «إنه من الجيل العربى، والبداوة إليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم، والصنائع»..

ونلمح التناقض الفكرى لابن خلدون الذى حمل على علوم الأوائل، ومنها الكيمياء التى يشى كلامه اعتبارها من العلوم العقلية الراقية التى لا يستطيع العرب – ومنهم الأمير خالد – الوصول إليها لبعدهم فى البداوة، ومن هنا فقد أثبت – من حيث لا يقصد – بداوة، وجهل من كفر اشتغال المسلمين بهذه العلوم باسم الدين، ودخل بهم إلى بداوة الجهل بالدين أيضا..

وإن كان نشاط حكام بنى أمية بشأن الترجمة قد بدا متفرقا، فقد اجتمع عليها خلفاء بنى العباس بداية من الخليفة «المنصور» الذى ترجمت له الكتب السريانية، والأعجمية ككتاب «كليلة

ودمنة»، و«أقليدس»، كما ذكروا أن أول ما نقل العرب من كتب كان فى الطب فى زمن الخليفة الأموى «مروان بن الحكم» – وقيل «عبد الملك بن مروان» – على يد الطبيب «ماسرجويه» الذى نقل كتاب «الكُنَّاش» بمعنى المجموعة لأهرن(أرون) بن أعين القس(آخر الأطباء السكندريين قبل الفتح الإسلامى لمصر) فى الطب من السريانية –وهو كتاب ذو شهرة واسعة لدى السريان – وظل محفوظا فى خزائن الكتب حتى جاء الخليفة «عمر بن عبد العزيز» فاستخار الله فى إخراجه للمسلمين للانتفاع به، ووضعه فى مصلاه، ولم يكن هو الكتاب الوحيد الذى أباحه هذا الخليفة، ولكنه أباح الكثير من الكتب النافعة فى العمران، وفى حياة المسلمين، ومعاشهم فى علوم الطب، والكيمياء، والهندسة.

ويورد «ابن النديم» فى فهرسه الدافع إلى حركة الترجمة التى تبناها المنصور فى رواية ساقها فى كتابه عن إصابة المنصور – ثانى الخلفاء العباسيين – سنة 147هـ - 765م بمرض فى معدته؛ فنصحه أطباؤه باستقدام «جورجيوس بن بختيشوع» السريانى النسطورى رئيس أطباء «جنديشابور «Jundishapur بفارس لعلاجه، ففعل، ولما شُفى استبقاه المنصور فى بغداد، ليرأس حركة نشيطة فى ترجمة الكتب الطبية، والتأليف فى هذا المجال، فبقى فى بغداد أربع سنوات، ثم عاد إلى بلده، وأرسل تلميذه «عيسى بن شهلا»، وظلت عائلة بختيشوع من أشهر أطباء الدولة الإسلامية طيلة 250 عاما فى تعاقب للأجيال وصل إلى الجيل السادس، ولم تتغير قوة، ونفوذ هذه المدرسة بعد الفتح الإسلامى، وبناء بغداد كعاصمة للعالم الجديد فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى، فلم يكن أطباء هذه المدرسة يميلون كثيرا إلى نقل مهنة الطب إلى الغرباء..

وبعد أن أسس الخليفة المنصور بغداد عُنى بعلم الفلك، بعد زيارة وفد السند سنة 154هـ - 771م فكلف أحد علماء الفلك منهم باختصار كتاب «براهما سفوسيد هانتا Sidhanta» بعد ترجمته إلى اللغة العربية؛ فاشتهر الكتاب فى العربية «بالسند هند»، وهو تحريف للمقطع الأخير من اسمه الهندى الذى يعنى العلم، أو المعرفة، ومؤلف الكتاب أشهر فلكى هندى عرفه العرب فى العصر العباسى وهو «براهماجوبتا Brahmagopta» الذى ولد فى البنجاب سنة 598م، وألف كتابه هذا سنة 628م..

ولم يقتنع «ابن خلدون» بهذا التبرير النفعى للاستفادة من كتب الحضارات الزائلة؛ فعلل حركة الترجمة فى زمن المنصور قائلا:

- «ثم جاء الله بالإسلام، وكان لأهله الظهور الذى لا كفاء له، وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه

للأمم، وابتدأ أمرهم بالسذاجة، والغفلة عن الصنائع حتى إذا تبحبح السلطان، والدولة وأخذ الحضارة بالحظ الذى لم يكن لغيرهم من الأمم، وتفننوا فى الصنائع، والعلوم تشوفوا للاطلاع على هذه العلوم الحكمية مما سمعوا من الأساقفة، والأقسّة المعاهدين بعض ذكر منها، وبما تسمو إليه من أفكار الإنسان فيها، فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب إقليدس، وبعض كتب الطبيعيات، فقرأها المسلمون، واطلعوا على ما فيها، وازدادوا حرصا على الظفر مما بقى منها، وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له فى العلم رغبة بما كان ينتحله، فانبعث لهذه العلوم حرصا، وأوفد الرسل على ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين، وانتساخها بالخط العربى، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه، واستوعب، وعكف على النظار من أهل الإسلام، وحذقوا فى فنونها، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها»..

ويشى كلام ابن خلدون «بنحلة المأمون» المعتزلية التى جنحت إلى العقل، والعلم البحت مؤيدا بالنصوص الدينية من قرآن، وسنة، فتدخل بسلطة الخلافة ليجعل هذا الاتجاه هو عنوان الدولة، وعقيدتها الرسمية، وبوأ أصحاب هذا الاتجاه مناصب الدولة العليا، ودعم له أكبر مؤسساتها وهى «بيت الحكمة» التى جمع فيها مختلف الكتب، وجعلها مقرا للترجمة من اللغات اليونانية، والسريانية، والسنسكريتية، والفارسية، ولم يقف عند التشجيع، والاحتضان فقط؛ بل تعداه إلى المشاركة بالتأليف فى كلام المعتزلة حتى وصفه ابن النديم بأنه:

- «أعلم الخلفاء بالفقه، والكلام».. ونسب إليه رسالة فى «الإسلام والتوحيد»، وأخرى فى «حجج مناقب الخلفاء»، وثالثة فى «أعلام النبوة»..

وكأى نهضة تبدأ عادة بالترجمة، وقد بدأت فى النهضة الإسلامية بغير المسلمين حيث كان معظم رواد الترجمة من المسيحيين النساطرة الذين كانوا يعلمون فى المدارس، والأديرة المنتشرة بالشرق الأوسط، وأوساط آسيا، وبرز منهم «حنين بن اسحق»، ومن بعده ابنه «اسحق»، و«ثابت بن قرة» من صابئة حران، و«أبو بشر متى»، و«يحيى بن عدى» من المسيحيين اليعاقبة، وغيرهم من الهنود ذى الأصول البوذية فى مدينة جنديشابور، ومنها انتقل هذا النشاط إلى بغداد، ولعل هذا ما جعل الفقهاء، ورجال الدين يتنكرون لحركة الترجمة بانغلاقهم العقلى المزمن، وغيرتهم من هؤلاء لقربهم من مراكز السلطة، فكان للمسلمين أدوارا ثانوية فى تلك المرحلة من مراحل حركة الترجمة كمترجمين مدعومين، ومحميين من النخبة الإسلامية الحاكمة، والمتفتحة الذين استقبلوهم بالاحترام، والتوقير باعتبارهم وجهاء الدولة، وتبعهم فى ذلك الأمراء، والنبلاء، وأصحاب الأموال، والنفوذ؛ مما مهد

أرضا ملائمة لامتداد جذور العلم، فأضافوا إلى الأرض الإسلامية زخما من تراث الحضارات السابقة، وصبغها الإسلام بلونه المميز، فانتشرت فى جو الحرية، والرعاية بعد أن احتضنها الذهن الإسلامى – فى بواكيره – المنفتح على الحياة، والناس قبل أن يعلوه مع الأيام صدأ العنصرية البغيضة، فانتشرت فى الأذهان التالية لهذا العصر أشباح الانغلاق، والانعزال، وكراهة الآخر..

انتقلت الثقافة اليونانية إلى العرب بادئ ذى بدء عن طريق المسيحيين من الكتاب، والمفكرين، والعلماء السريان، ثم عكف العرب بأنفسهم على هذا التراث فى مصادره الأصلية فصححوا ما عرفوه، وتوثقوا من معلوماتهم، ثم جاء علماء الهنود الذين كانوا سببا غير مباشر فى النقل إلى العرب بإبداعهم فى الدراسات الرياضية، والفلكية عن طريق مدرسة الإسكندرية حيث كان الفكر اليونانى فى هذا الوقت منصرفا إلى العلم أكثر من الفلسفة بعد أن أنشئت مدرسة الإسكندرية، وأصبحت مقرا للعلم اليونانى، ونبغ فيها «إقليدس»، و«جالينوس»، و«أرشميدس»، و«بطليموس»، وغيرهم من كبار العلماء الذين وضعوا أصول العلم اليونانى كالهندسة، والفلك، والطب، وظلت مدرسة الإسكندرية منارة العلم فى العالم حتى القرن السادس بعد الميلاد عندما ظهر علماء الطبقة الثانية الذين رتبوا كتب علماء الطبقة الأولى، وهذبوها، وأعدوها للتعليم، وهذه الطبقة هى التى نقل عنها العرب العلوم المختلفة قبل الفلسفة..

ولم تختص الإسكندرية فقط بهذا العلم الذى اتجه شرقا منذ القرن الرابع بعد الميلاد، واستقر فى المدن الشامية مثل أنطاكية، والرها، ونصيبين، ورأس العين، فنقل نصارى السريان بعد انتشار المسيحية فى مصر، والشام، والجزيرة العربية كثيرا من الكتب إلى لغتهم، كما ازدهرت قبلهم جنديشابور منذ 260م تقريبا، وصارت مهدا للعلم، والطب اليوناني، ونهضت فيها الفلسفة بعد طرد الإمبراطور الرومانى جستنيان لفلاسفة مدرسة أثينا بإصداره مرسوما سنة 529م بحظر تدريس الفلسفة؛ فخلت البؤر الفلسفية فى أثينا، والإسكندرية من مدارسها، فرحب بهم كسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز(531 – 579م) فى جنديشابور، فانتقل الكثير من العلوم إلى الفارسية..

يقول روزنتال فى كتابه «مناهج العلماء المسلمين والبحث العلمى»:

- «أما النصارى فإنهم أغفلوا أمر العلم، إلا أنهم حفظوه فى كتبهم، وخزائنهم إلى أن أتى المسلمون فأحيوا ما عفا عليه الزمن»..

ازدهر التراث اليونانى العلمى فى بيئته العربية الجديدة، وتطور تطورا حقيقيا؛ فلم يكن العلماء العرب المسلمون مجرد قنطرة لمن ذهبت إليهم الحضارة من الأوروبيين؛ ولكنهم طابقوا، ووفقوا

بين مؤلفات الإغريق، والهنود فى الفلك، والرياضيات، وابتكروا علوما جديدة كالجبر، وحساب المثلثات الكروى، كما حققوا، وصححوا السجلات القديمة فى الفلك اليونانى، والهندى..

كما كانت مدينة حران Harran مصدرا ثانويا للعلوم اليونانية حيث كانت مستعمرة يونانية احتفظت بوثنيتها حتى القرن الثالث الميلادى رغم انتشار المسيحية، وكانت تسمى «هلينوبوليس»، واشتهر منها ثابت بن قرة، وولداه إبراهيم، وسنان، وحفيداه ثابت، وإبراهيم، وكانوا يترجمون من اليونانية إلى العربية مباشرة، واشتهرت عائلة أخرى فى الترجمة تدعى «زهرون»، عاصرهم «قسطا بن لوقا» من نصارى بعلبك السورية..

وبدا أثر الفرس الملحوظ فى الحضارة الإسلامية منذ القرن الأول الهجرى خاصة فى كل من الكوفة، والبصرة مما نشأ عنه أسلوب عربى مولد على أثر الاحتكاك مع الموالى، والرقيق من أصل فارسى- كما حدث فى الأندلس - فظهرت طائفة من العلماء، والشعراء من غير العرب إبان النصف الثانى من القرن الأول الهجرى، وشجع البرامكة - وزراء الدولة العباسية - حركة الترجمة من الفارسية إلى العربية؛ فكلف «يحيى بن خالد» البرمكى كلا من «أبى حسان»، و«سلمان» من بيت الحكمة بترجمة المجسطى فى الفلك، وبعض الكتب الفارسية الطبية، كما قام بالترجمة أيضا من الفارسية «آل نوبخت»، و«موسى الترجمان»، و«يوسف بن خالد»، و«على بن زياد التميمى»، و«اسحق بن يزيد»..

توثقت العلاقات الهندية - العربية بعد الفتح الإسلامى للهند خلال العصر الأموى حوالى 91هـ - 709م، وازدادت العلاقات قوة فى العصر العباسى؛ فترجم العرب فى عهد الخليفة المنصور أشهر كتب الهند الطبية لما كان لأطباء الهند من شهرة، ومهارة استفاد بها الخلفاء العباسيون، ومنهم هارون الرشيد الذى استقدم الأطباء الهنود للعمل فى مستشفيات، ومدارس الطب فى بغداد، كما أمر يحيى بن خالد البرمكى بترجمة كتابى «سسرد»، و«البيمارستان» للطبيب الهندى «منكه» الذى استقدمه الرشيد لعلاجه، ثم استبقاه عنده، كما جلب العرب الكثير من النباتات الطبية بأسمائها الهندية مثل الزنجبيل، والكافور..

وقد رصد بعض الباحثين فى هذا الشأن ثلاثة أدوار لحركة النقل، والترجمة فى الدولة العباسية حيث ترجمت كتب الفلسفة، والأدب، والطب، والرياضيات، والنجوم، وهى:

من خلافة المنصور، حتى وفاة الرشيد..

من خلافة المأمون سنة 198هـ - 813م حتى 300هـ - 912م..

الفترة من 300 إلى 398هـ - 1007م..

كان الخلفاء العباسيون الأوائل من أكثر الخلفاء تفتحا، وانفتاحا على الآخر فى تاريخ الخلافة الإسلامية، فكانوا ذوى عقليات جديدة استنكرها الفقه الإسلامى المتجمد، والغارق فى بحر لا نهائى من الروايات المتناقضة، فاصطدموا بهم، فقد كانوا ميالين للعلم أيا كان نوعه، وإلى البحث، والفكر على إطلاقه، فالخلافة العباسية فارسية المنشأ، وكان الفرس داعمين رئيسيين فى نشأة دولتهم، وتأسيسها، وتمكينها بالسيف، والعلم؛ يقول دى بور:

- «ولكى يتوصل العباسيون إلى الدولة تساهلوا مع الفرس، وأزعنوا لمطالبهم، وأخذوا يُلبسون حركاتهم السياسية ثوب الدين، ويسخرونها لمصلحتهم»..

كما نشأ العباسيون، وتعلموا فى كنف الفرس على الرغم من أصلهم العربى، واقترابهم فى نسبهم للنبى محمد صلى الله عليه وسلم حتى زاد نفوذهم أيام الرشيد بصفة خاصة، فازدهر العلم فى عصرهم، وأسهم العلماء - بتشجيعهم - إسهاما عظيما فى تقدم العلم، فأصبح عصرهم بحق هو «العصر الذهبى للحضارة الإسلامية»..

وقد بدأ المترجمون بالطريقة اللفظية على يد «يوحنا بن البطريق»، و«عبد المسيح بن الناعمة الحمصى»، و«اصطفان بن باسيل»، و«سرجيوس الرأس عينى»، و«أيوب الرهاوى» وغيرهم؛ فكانوا يقابلون اللفظ باللفظ حتى استبدل حنين بن اسحاق هذه الطريقة الرتيبة، والبطيئة التى افتقدت الدقة بالطريقة المعنوية الشاملة للنص تدعمها الألفاظ، والمصطلحات التى عُربت، فأصبحت عربية اللغة بالتداول مع مرور الوقت، وبرز الكثير من المترجمين أمثال «حنين بن اسحق العبادى»، و«ابن البطريق»، وابنه «يحيى»، و«اصطفن بن باسيل»، و«عيسى بن يحيى السريانى»، و«حبيش»، و«إبراهيم بن الصلت»، و«أبى الحسن الحرانى»، و«جبرائيل بن عبيد الله»..

وعندما اكتملت أعمال الترجمة أصبحت اللغة العربية هى وعاء العلوم، والثقافة - وليس الدين فقط - فى القرن العاشر الميلادى(الثالث الهجرى)، فبرز فى هذه الفترة العلماء المسلمون فى الأراضى الإسلامية من أمثال «ابن الهيثم»، و«عمر الخيام»، و«الخوارزمى»، وغيرهم، وانتقل عنهم الكثير إلى أوروبا فى عصر النهضة بعد حركة الترجمة التى قامت بها، فبدأ روجر بيكون تجاربه - رغم معارضة الكنيسة - اعتمادا على أبحاث ابن الهيثم فى البصريات، كما أن الترجمة اللاتينية لكتاب «القانون فى الطب» لابن سينا كان بمثابة المرجع الأساسى للطب فى أوروبا، وجامعاتها لعدة قرون، كما كان ابن رشد أول فلاسفة الإصلاح فيها..

وفى زحمة الترجمة التى بدأها العرب المسلمون بالعلوم، وأولها علوم الطب لحاجتهم الملحة لها، وانعدام اعتراض الفقهاء، ورجال الدين عليها فى ذلك الوقت دخل فلاسفة اليونان، وتعرف عليهم العرب المسلمون نظرا لطبيعة الفلسفة فى اشتمالها على كل العلوم، واشتغال الفلاسفة بكثير من العلوم، فوقع الخلط أول الأمر بنقل ابن ناعمة الحمصى لكتاب «الربوبية، أو الثيولوجيا Theology»، وأصلحه أبو يعقوب الكندى ضمن كتب أرسطو الذى قامت فلسفته على الوجود، بينما كان مؤلفه الحقيقى أفلوطين الذى قامت فلسفته على الواحد بعد ظهور المسيحية، وقد كان العرب المسلمون فى أول عهدهم بالاطلاع على هذه الفلسفة، وروادها، والفرق بينهم فى آرائهم، ومدارسهم الفلسفية، فوقع أول روادهم الكندى فى هذا الخلط، ولكنه خرج بتوليفة فلسفية دمجت ميتافيزيقا الوجود بميتافيزيقا الواحد فى فلسفة جديدة، وتدارك الفارابى بعده هذا الخلط، مشككا فى نسبة الكتاب إلى أرسطو..

وليس هناك خلاف فى تسمية الحضارة بالإسلامية، أو العربية فقد كانت الثقافة العامة فى ذلك الوقت ذات صبغة إسلامية؛ مكتوبة باللغة العربية، فظهرت هذه الحضارة فى التاريخ كبوتقة صهرت فيها عقول، وأفكار لم تتميز إلى جنس، أو عنصر، أو دين..

لقد اتسع القرنان الثالث، والرابع الهجريان لحركة الترجمة الشاملة حتى شمل الفهرست لابن النديم كتب الهند المترجمة إلى العربية، خاصة فى الطب، حتى قمعت هذه الحركة التى استمرت بعد المأمون ابتداء من القرن الخامس الهجرى(الحادى عشر الميلادى) فى سياق حركة شاملة لإبادة الفكر المعتزلى، وحصار التفكير العقلى فى الحضارة الإسلامية، بداية من الانقلاب المتوكلى المبكر(232 - 247هـ)(846 - 861م) والذى تأكد بالانقلاب القادرى(380 - 422هـ)(990 - 1030م)، وساد هذا الاتجاه تحت شعار محاربة البدعة بلا منازع حتى القرنين السابع، والثامن الهجريين، لتدخل الحضارة الإسلامية كهفها المظلم بالانحطاط الطويل، والتخلف المزرى إلى يومنا هذا، وقد عبر عن ذلك أحد المهللين لهذا الاتجاه فى العقل الإسلامى وهو ابن الجوزى فى كتابه «المنتظم» حيث قال:

- «فى سنة ثمانى وأربعمائة استتاب القادر بالله فقهاء المعتزلة الحنفية، فأظهروا الرجوع، وتبرأوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام، والتدريس، والمناظرة فى الاعتزال، والرفض، والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذ خطوطهم بذلك وأنهم متى خالفوه حل بهم النكال، والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم، وامتثل أمين الدولة، وأمين الملة أبو القاسم محمود(السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى) أمر أمير المؤمنين، واستن بسنته فى أعماله التى استخلفه عليها من خراسان، وغيرها فى قتل المعتزلة،

والرافضة، والإسماعيلية، والقرامطة، والجهمية، والمشبهة، وصلبهم، وحبسهم، ونفاهم، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين، وإبعاد كل طائفة من أهل البدع، وطردهم عن ديارهم، وصار بذلك سنة فى الإسلام»..

ودخلت المنافسة السياسة، والمذهبية حلبة الصراع للتعجيل بالظلام، والدخول فى غيابات الكهف الملعون، فكان السلطان محمود الغزنوى(387 - 421هـ)(997 - 1030م) أول اللاعبين بالنار فى حرق الكتب من أجل إرضاء الخليفة العباسى القادر بالله فى بغداد، فى سباق المنافسة ضد أمراء بنى بويه الشيعة، فكانت مكتبة بخارى السامانية، تليها مكتبة الرى البويهية، وأول ما فعله هذا الأمير بعد أن دخلت عساكره الرى أنه صلب من الباطنية خلقا كثيرا، ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة، ومذاهب الاعتزال، والنجوم، وأخذ الكتب ما سوى ذلك مائة حمل - كما أخبر ابن الأثير فى كتابه الكامل - فدخل أهل السنة فى مناهضة البويهيين بحرق مكتبتهم التى شيدوها لإرضاء الخليفة السنى فى بغداد..

ولم يقتصر الأمر فى ذلك على الحكام، والسلطان من السنة، ولكن الفقهاء أدلوا بدلوهم فى هدم ما تبقى من الآثار العقلية، والحضارية بتحريض العامة من السنة المتعصبين على الشيعة فى بغداد بحرق مكتباتهم بما فيها من كتب، حتى طال الأمر مكتبات المساجد؛ فلم تسلم من هذا المصير الرهيب دون مراعاة لحرمة بيوت الله، وما فيها، فتولوها بالحرق، والإبادة دون نظر إلى ما تحتويه، وطال هذا الحرق، وهذه الإبادة أيضا أحياء بكاملها، ثم استدار الثور السنى الهائج نحو تمزيق نفسه بنفسه بعد أن مزق الثور الشيعى، فوقع الصدام الدامى فى بغداد نفسها بين الحنابلة، والأشاعرة، ثم بينهم، وبين الأحناف، وكلهم من السنة، ولكنه تحريض الفقهاء، ورجال الدين..

ويغار المغرب الإسلامى فى الأندلس من المشرق المنتحر بحضارته الفتية فينافسهم فى الاضمحلال، والانسحاب المبكر من ركب الحضارة، وكان هذه المرة على يد أحد جهلاء خدم الدولة الأموية فى الأندلس، وهو «أبو عامر» حاجب الخليفة «الحكم الثانى المستنصر بالله»(350 - 366هـ)(961 - 976) وكان هذا الخليفة عالما محبا للكتب، فجمعها من كل مكان فى فارس، والشام طوال فترة حكمه حتى كون مكتبة عظيمة نافست كتبها كل ما جمعه خلفاء بنى العباس فى بغداد فى أزمان طويلة، حتى صارت الكتب المؤلفة فى الشرق تعرف فى الأندلس أولا، ومن الأمثلة أنه أرسل ألف دينار من الذهب إلى أبى الفرج الأصفهانى ليقتنى منه أول نسخة من كتابه الأغانى، وقرىء هذا الكتاب فعلا فى الأندلس قبل أن يقرأ فى العراق، فقلدته الرعية، وتحركت نحو العلوم، وترقية

العقول التى انفتحت على العالم، وعندما توفى الخليفة الحكم خلفه ابنه «هشام المؤيد بالله»، وكان غلاما تغلب عليه هذا الحاجب فى أمور المُلك، وينعى إلينا ابن صاعد الأندلسى فى كتابه «طبقات الأمم» مصير هذه المكتبة، وما آلت إليه كتبها البائسة على يد هذا الحاجب متسول الحكم:

- «وعمد أول تغلبه عليه إلى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة، وغيرها، وأبرز ما فيها من ضروب التواليف بمحضر خواصه من أهل العلم بالدين، وأمرهم بإخراج ما فى جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة فى المنطق، وعلم النجوم، وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا كتب الطب، والحساب، فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة فى اللغة، والنحو، والأشعار، والأخبار، والطب، والفقه، والحديث، وغير ذلك من العلوم المباحة بمذاهب الأندلس إلا ما أفلت منها، وذلك أقلها، فأمر بإحراقها، وإفسادها، فأحرق بعضها، وطرح بعضها فى آبار القصر، وهيل عليها التراب، والحجارة، وغيرت بضروب التغاير، وفعل ذلك تحببا إلى عوام الأندلس، وتقبيحا لمذاهب الخليفة الحكم عندهم، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم، مذمومة بألسنة رؤسائهم، وكان كل من قرأها متهما عندهم بالخروج عن الملة، مظنونا به بالإلحاد فى الشريعة، فسكن أكثر من كان تحركا للحكمة عند ذلك، وخمدت نفوسهم، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم»..

ولم يقتصر الأمر على الحرق، والإبادة، ولكنه اقتضى تجفيف منابع الفكر، والعقل للتأكد من استئصال الجذور التى من الممكن أن تعاود الإنبات مرة أخرى؛ إذا ما أنزلت السماء أمطارا جديدة تبعث فيها الحياة بعد موتها، فتم القضاء على مدرسة بغداد الفلسفية بعد آخر قادتها «أبو سليمان السجستانى» بعد «عدى بن يحيى»، والمدرسة السينوية(نسبة إلى ابن سينا) فى خراسان، وما وراء النهر..

ويؤرخ ابن خلدون لهذه العلوم فيتحدث عن أصولها فى مقدمته:

- «اعلم أن أكثر من عنى بها(العلوم العقلية، والطبيعية من منطق، وفلسفة، وطبيعيات، وهيئة) الأمتان العظيمتان فى الدولة قبل الإسلام وهما فارس، والروم، وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما، ونطاقها متسعا لما كان عليه دولتهم من الضخامة، واتصال الملك، ولما فتحت أرض فارس، ووجدوا فيها كتبا كثيرة كتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى شأنها، وتنقيلها إلى المسلمين، فكتب إليه عمر أن اطرحوها فى الماء، فإن يكن فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منها، وإن يكن فيها ضلالا فقد كفانا الله، فطرحوها فى الماء، أو فى النار، وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا»..

فإن صحت هذه الرواية فالعذر كل العذر للمغول الهمج الذين قضوا على مكتبة بغداد بأن عبروا علي كتبها نهرى دجلة، والفرات، وهم بذلك أفضل منا حالا إذ إنهم استفادوا منها فى شىء ما، وهم ما كانوا إلا قبائل هائمة فى بداية عهدها بالتحضر، ولم يكن لهم دين، ولا كتاب سماوى يأمر بالعلم، والتعلم، وإعلاء قيمة العقل، والمنطق، ولكننا قوم جعلنا الدين عنوانا للهمجية، واغتيال الحضارة، وهو ما جاء إلا لبث الروح فى مادية الحضارات، وربط الأرض بالسماء..

كراهة الكتب وحرقها:

ما هو سر الخوف، والتطير، واستجلاب نذر الشر من الكتب عموما التى تتحدث بغير ما يتحدث به الفقهاء، ولماذا لا يطيقون الاختلاف معهم فى الأصول، والفروع معا حتى انسحبت القداسة إلى كتبهم، ومشايخهم فتعصبوا للمذهب وهم يظنون - جهلا، وغباء - أنهم يتعصبون للدين الذى سلبوه لأنفسهم من دون الناس، وهو ما يؤكده الاسم الذى اختاروه لجماعتهم اعتقادا منهم أنهم هم الفئة الناجية:

- «قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون» البقرة(80)..

أسس الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية سنة 323 ق.م. فى موقع القرية المسماة «راقودة»، وعندما انقسمت إمبراطورية الإسكندر بين قواده كانت مصر من نصيب قائده بطليموس سوتير الذى اتخذ الإسكندرية عاصمة لملكه، وبذل جهدا كبيرا ليجعلها موطن الثقافة، والعلوم اليونانية، فأنشأ فيها الأكاديمية، وكان فى معبد عين شمس ما يشبه مجمع الحكماء الذين انتقلوا إلى الأكاديمية التى كانت تبارى أثينا القديمة، وورثت حكمة قدماء المصريين..

ولكن خلفه بطليموس فيلادلفوس Ptolemy Philedelphus (285 - 247 ق.م) أثرى المكتبة التى ألحقها بأكاديمية بطليموس سوتير فأصبحت أعظم مكتبة فى العالم..

أصدر الإمبراطور الرومانى ثيوديسيوس الأول سنة 391م أمرا بالقضاء على الوثنية(بعد تحول الدولة الرومانية رسميا إلى الديانة المسيحية)؛ فقام بطريرك الإسكندرية بجمع غوغاء المسيحيين، والهجوم على معبد السيرابيوم(المعبد الوثنى)، ومكتبته ودمروها، ويبدو أن التحطيم شمل أيضا المتحف، والمكتبة التى اشتملت عليها مكتبة الإسكندرية عموما..

بعد دخول عمرو بن العاص مصر سنة 19هـ - 640م، دخل العرب الإسكندرية بعد أن دمروا

obeikandl.com

أسوارها، وتعرف فيها عمرو على عالم لاهوت مسيحى طاعن فى السن يدعى «يوحنا فيلوبونوس» – تلميذ الفيلسوف السكندرى «أمونيوس» - المعروف لدى العرب «بيحيى النحوى» الذى ساهمت كتاباته إلى حد كبير فى نقل الثقافة الإغريقية للعرب، وطلب من عمرو الحفاظ على الكتب الموجودة بمكتبة الإسكندرية، وقص عليه تاريخ هذه المكتبة، فما كان من عمرو إلا أن رد عليه بقوله:

- «ليس بإمكانى التصرف دون أخذ مشورة الخليفة عمر بن الخطاب».. فكتب إلى عمر يستشيره فى أمر هذه الكتب، بينما أذن ليوحنا، وتلميذه الطبيب اليهودى «فيلاريتس»(له كتاب طبى عن النبض نسب خطأ إلى يوحنا فيلوبونوس)، وبعد عدة أيام جاءه من عمر الرد التالى:

- «فأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنها غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة بنا إليها».. فكان القرار الاستفادة منها بتوزيعها على حمامات الإسكندرية لاستخدامها حرقا فى تسخين المياه، حتى تم حرق جميع الكتب بما فيها من علم، ومعرفة فى غضون ستة شهور، وهو ما ذكره المقريزى فى كتابه «المواعظ والاعتبار»، وابن النديم فى «الفهرست»..

ولكن للرواية ثغرة فاتت الراوى؛ وهى أن عمروا فرق الكتب بما حوت على حمامات الإسكندرية فى غضون ستة أشهر، وهذه الكتب تعد بالآلاف المؤلفة، وكانت ذات أحجام كبيرة، وثقيلة فى ذلك الوقت؛ فكم حماما كان موجودا بالإسكندرية وقتها لاستنفاد هذا الكم من الكتب فى هذه المدة القصيرة، وهل هذه الكتب التى وزعت على الحمامات بالمجان لم تستهو أحدا ممن وزعت عليهم فيستبقيها للقراءة، أو حتى للبيع؛ خاصة أن هذه الحمامات كانت تستوقد نارها من فضلات(قمامة) سكان المدينة، ولم يكن بها أزمة تشغيل لوفرة الوقود، فالأولى حرق الكتب فى مكانها، أو تجميعها فى مكان ما لحرق ما فيها أمام الناس كما حدثنا التاريخ بشأن محارق الكتب، والأفكار عبر الزمان، كما يذكر د.عبد المنعم الحُفنى فى «موسوعته الفلسفية» أن أمونيوس الفيلسوف السكندرى المذكور عاش فى الفترة 175 – 250م، بمعنى أنه لم يكن له وجود فى الفتح العربى للإسكندرية..

حوت كتب المكتبة عصارات فكر، وتجارب الحضارتين المصرية، والإغريقية فصهرتهما هذه المكتبة، فقد فرض القائمون عليها على الدارسين بالمكتبة إيداع نسخة من مؤلفاتهم فى المكتبة – كما يحدث الآن بعد إعادة بنائها سنة 2002م فى عصر الرئيس حسنى مبارك – وقد تجرد الدارسون بها للعلم فقط دون الانتساب إلى دين، أو عرق، أو جنس، أو سياسة ما، كما جمعوا فيها كل ما

حوته المعابد المصرية من علوم، وكتب، ومعارف ضن بها الكهنة على العوام من الشعب الذين لا يعرفون قيمتها العلمية..

ويقول د.نبيل لوقا بباوى أستاذ القانون الجنائى فى مقاله بباب قضايا وآراء بجريدة الأهرام الصادرة بتاريخ 18 من سبتمبر 2003م:

- «إن عمرو بن العاص دخل الإسكندرية سنة 642م فى وقت لم تكن فيه مكتبة الإسكندرية موجودة حتى يحرقها، حيث يقولون إنه ثبت أن مكتبة الإسكندرية تم إحراقها عن آخرها فى زمن الإمبراطور الرومانى يوليوس قيصر عام 48 ق.م. حيث لم ترد فى كتب الأقدمين كاليعقوبى، والبلاذرى، وابن عبد الحكم، والطبرى، والكندى، ولا فى تاريخ من جاء بعدهم، وأخذ منهم كالمقريزى، وأبى المحاسن، والسيوطى وغيرهم».. ويقول أيضا فى نفس المقال:

- «فى عام 48 ق.م. قام يوليوس قيصر بحرق 101 سفينة كانت موجودة على شاطئ البحر المتوسط أمام مكتبة الإسكندرية، بعد أن حاصره بطليموس الصغير شقيق كليوباترا، بعدما شعر أن يوليوس قيصر يناصر أخته كليوباترا عليه، وامتدت نيران حرق السفن إلى مكتبة الإسكندرية فأحرقتها؛ حيث يعتقد بعض المؤرخين أنها دمرت»..

وعن كبار المخربين فى تاريخ الحضارة البشرية يقول ديودور الصقلى الذى عاش بالإسكندرية فى القرن الأول قبل الميلاد:

- «إن الفرس بقيادة قمبيز أشعلوا النيران فى كل معابد مصر، وحملوا معهم كل الكنوز إلى آسيا، واقتادوا قسرا عمالا مصريين لبناء القصور الشهيرة، وبعض المدن فى ميديا»..

ولم ينظر الإمبراطور جستينيان(يوستينيانوس) بعين الارتياح إلى فلاسفة الأكاديمية فى أثينا لقبولها النظرية الأرسطية فى خلود المادة؛ مما يتعارض مع مبادئ العقيدة المسيحية فى خلق العالم، فتحولت هذه النظرة إلى الارتياب، ثم العداوة التى أدت فى النهاية إلى اضطهاد فلاسفة الأكاديمية سنة 528م فأمر بغلق الأكاديمية فى السنة التالية، وصودرت أموالها، فهاجر فلاسفتها إلى فارس سنة 532م حيث رحب بهم كسرى فى جنديشابور، أى عسكر شابور، وكانت عاصمة خوزستان فى عهد الساسانيين..

وفى القرن الرابع الميلادى أصدر الامبراطور الرومانى ثيودوسيوس، ومن بعده جوستنيان فى القرن السادس الميلادى مرسوما بإغلاق المعابد المصرية، وتحريم تعاليمها، وتجريم العبادة، أو تلقى العلم فيها، أى القضاء على النظام الثقافى الاجتماعى المصرى..